ملاحظة تمهيدية

لفت أوسكار ريتر فون نيدرماير نظري عام 1986، قبل إقامة دامت عدة أعوام في موسكو. فقد وقع بين يدي بالمصادفة لا بالبحث كتاب روسيا الذي وضعه عام 1934، ورغم ما أثاره عدم النشر لدي من تحفظ حيال المؤلف وعمله، فإن قراءة الكتاب أثبتت أنها مثيرة ومجزية.

وصفت سيدة موسكوفية تقدم بها العمر الحقبة التي سبقت الهجوم الألماني على الاتحاد السوفياتي. وقد توجهت نظرتها إلى الماضي وتركزت على أشخاص ومؤسسات ارتبطت بهم مأساة روسيا، وبدا نيدرماير في وثائقها ومذكراتها كرجل ارتباط بين برلين وموسكو، وبين جيش الرايش الالماني والجيش الأحمر، وأمكن التعرف على شخصيته المفعمة بالأسرار، التي أمكن التعرف على قسماتها العامة. ومع أنه من الثابت أنه انتمى إلى نخبة الرايش الالماني العسكرية والثقافية، فإنه كان في الوقت نفسه رجلا طرفيا أحاطت به الأسرار والألغاز.

بعد عام 1991، وما شهده من انهيار الاتحاد السوفياتي وعودة آسيا الوسطى والقوقاز إلى السياسة الدولية، بدت جلية أهمية نيدرماير العلمية، الذي أدرك كما لم يدرك أي إنسان آخر الارتباط المباشر بين سياسة روسيا

وبين تغيرات الأوضاع في القوقاز وآسيا الوسطى وتركيا وإيران وأفغانستان، وحاول شرح دينامية هذا المجال علميا، وتوجيهها سياسيا.

هذه النظرة، وتجربة حروب البلقان، أدتا إلى قرار اتخذته في منعطف عام 1997 / 1998، دفعني إلى تأمل مراحل حياته المختلفة في تواصلها وارتباطها، ورواية سيرته في سياق عصره. وقد طرح نفسه أول الأمر سؤال هو: هل للانشغال بحياة هذا الإنسان أية أهمية بالنسبة إلى الحاضر، وأي معنى لفكر وسلوك ضابط وأستاذ جامعي توفاه الله عام 1948 بالنسبة إلى سياسة القرن الحادي والعشرين؟. ثمة وقائع حديثة جعلت الإجابة على السؤال سهلة.

تمس التغيرات السياسية والعسكرية الاجتماعية والروحية، التي تحصل اليوم في البلقان وأفغانستان وآسيا الوسطى والعراق وتركيا والقفقاس، مصالح أوروبا بصورة مباشرة. صحيح أن نقطة انطلاق الوضع الدولي تغيرت جذريا منذ موت نيدرماير، لكن المعطيات الجغرافية والدينية والاقتصادية والسياسية الرئيسة، التي رآها نيدرماير أكثر من أي شخص آخر، تجعل من المنطقة التي اسماها «المجال الأرضي الانتقالي»، الواقع بين برلين وبغداد، موسكو وكابول، حقل التوتر الأشد خطورة في عصرنا الحاضر.

انتهت سياسة القوة، كما انتهت الجيوستراتيجية الألمانية إلى كارثة سياسية وعسكرية وأخلاقية عام 1945، لكن الكارثة لم تكن رغم ذلك حتمية. إن خيارات القيادة الألمانية لم تكن مبرمجة بصورة مسبقة، ولا تستبعد السببية التاريخية بأي حال من الأحوال قدرة البشر على الفعل الحر، والتجربة أشد أهمية اليوم مما كانت عليه في عقود الحرب الباردة، لأن المانيا ترى نفسها من جديد في مواجهة أوضاع وأزمات سياسية عسكرية تفرض عليها اتخاذ قرارات تتعلق بكتلة أوراسيا الأرضية والبلقان وأفغانستان والشرق الأدنى.

إن سياسة أمن ألمانية لها مسؤوليات أوروبية، تعمل تحت ضغط الأحداث في مناطق يحددها طريق حياة اوسكار فون نيدرماير، ستحسن صنعا إن هي تفادت طرق الخطأ الكارثية التي عرفها الماضي، وسيكون غلطة مصيريا لو حدث في القرن الحادي والعشرين ارتداد ألماني إلى مجال كبير قاري يبطل بعد السياسة الأوروبية العامة الأطلسي / البحري. إذا كان هناك من عبر وعظات يريد المرء استخلاصها للمستقبل، انطلاقا من فرص وغوايات السياسة الألمانية في القرن العشرين، فإنه سيجد بالتأكيد ما يكفي من تحذيرات قاطعة في حياة نيدرماير الخطيرة وعمله العلمي.

واشنطن / برلين، صيف عام 2002
هانس أولريش سايدت